غير ان قراءة سريعة ووحيدة الجانب ، لتحليل الصراع الطائفي ، تستطيع أن تجرده من أساسه بوصفه انعكاسا لسيطرة الرأسمالية الوسيطة ، في خضم محيط من الصراع — التوازن بين حركة التحرر العربية والامبريالية .

لذلك تخرج هذه القراءة باستنتاج دائرية الصراع الطائفي على الطريقة الخلدونية . أي باستبدال العصبية بالطائفة . ان هذا الاستنتاج الدائري ، لا يجد أساسه الا في اعتبار التجزئة كمعطى وحجب التناقض الرئيسي بين الحركة الوطنية العربية والامبريالية . وحجب واقع الكيان باعتباره نقطة توازن هذا الصراع . لذلك فالصراع الطائفي ليس دائريا ، الا بمقدار عدم وجود القدرة على الحسم في الحركة الوطنية العربية . هذه القدرة على الحسم لن تتشكل الا في لهب الصراع مع العدو الرئيسي الاسرائيلي الاميركي .

ان انفجار الصراع الطائفي في لبنان عام ١٩٥٨ كان كما أسلفنا ، نتيجة حتمية لاختلال التوازن بين المحيط العربي بقيادة عبد الناصر والمركز الامبريالي . وعودة التوازن كانت نتيجة عدم قدرة القيادة البورجوازية العربية على الحسم . أما الآن ، فحين يتكرر الصراع الطائفي بصيغ جديدة وأكثر عنفا ، فانه نتيجة لاختلال التوازن الذي عبرت عنه حرب ٦٧ العدوانية بالهجمة الامبريالية الشرسة على القيادة البورجوازية الوطنية لتدجينها . هكذا برزت المقاومة بأفق قطري يتلمس وجهته القومية بالممارسة ، لتشكل نقطة جذب فعلية الى التناقض الرئيسي بالممارسة اليومية المسلحة . وهي بهذا المعنى ، أدخلت الى لبنان اختلالا في توازنه السياسي . فالمقاومة ليست على المستوى البنيوي سلطة عربية يمكن اقامة توازن معها . بل هي قوة جماهيرية لا يمكن تدجينها الا بتصفيتها . من هنا دورها الثوري في المرحلة الراهنة . باعتبار استحالة اقامة توازن نهائي معها في الميزان الفعلي للصراع العربي — الاسرائيلي .

ان هذا يعني على المستوى اللبناني حقيقة أساسية : فالصراع الطائفي في لبنان هو انعكاس مباشر للصراع القومي في سبيل التحرر من القبضة الامبريالية . وهو بهذا المعنى ، وفي التحليل الاخير الشكل المؤقت للصراع الطبقي العربي في الساحة اللبنانية .

انه شكل صراع لأن الصراعات تستعير الاشكال القديمة لتدمرها في الصراع نفسه . ففي ظل الكيان ، وفي اطار التوازن العربي — الامبريالي (هذا التوازن هو لحظة في الصراع وليس نهايته) تصبح الطوائف أطر الصراع الوطني العربي ، لأنها الشكل اللبناني الذي تفرزه البنية .

وهو شكل مؤقت لأنه يقوم على عدم قدرة الحركة الوطنية العربية على حسم تناقضها الرئيسي مع الامبريالية . لذلك فان اعادة انتاج الشكل الطائفي مرهونة باعادة انتاج الكيان — التجزئة . من هنا قدرة الصراع القومي على طرح المسألة اللبنانية على بساط البحث في شروط وصول التناقض الرئيسي الى نقطة الانفجار الموضوعية في الحرب الشعبية الوطنية . هنا تسقط مقولات اليمين اللبناني « الذكي » القائمة على تكثيف التوزيع واعادة بنائه بشكل متوازن . لأن المسألة القومية تستطيع اعادة صياغة التحالفات الاجتماعية بشكل جديد ورمي الاقتصادوية في مكانها الطبيعي بوصفها ايديولوجية كاذبة . ان الصراع الوطني داخل جبهة وطنية عربية متحدة تضم جميع الطبقات الوطنية بقيادة الطبقة العاملة العربية ، هو الاطار النضالي الذي سيوحد جميع الشرائح الاجتماعية الوطنية في لبنان ليسقط الصراع الطائفي ، بعد أن يستنفد دوره بوصفه شكلا مؤقتا للصراع الطبقي .